أهمية المصادر المائية لدى التجمعات القروية بتلمسان
قرى بني سنوس نموذجا

د. رابح فيسة محمد
قسم علم الآثار جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

abstract

Is a water issue among rural communities is particularly important in view of its role in various walks of life, economic private ones, so we chose the importance of this neighborhood element and its relationship to the residential gatherings as an example in the villages of Beni Snous Reef Tlemcen, and its importance to the people of the region through the methods used by its population dealing with the water and how to divide and to ensure clean sources cooperation in that and try to organize the community through inheritance of some of those roads that gained population from father to son, and this study we adopted in the field by trying to understand the methods and backgrounds as we will talk about the article .

key words

Beni Snous, water, economic life

لقد فرضت معطيات التضاريس والمناخ بقرى بني سنوس على سكان كل قرية منها طرقا محددة للتعامل معها لضمان إمكانية ممارسة الأنشطة الفلاحية التي تعتبر العامل الرئيسي في حفظ الاستقرار بالمنطقة كلها وشرطا أساسيا من شروط العمران الريفي ،حيث أنه توجد العديد من الأمثلة التي اشتهرت بها قرى وأرياف العالم العربي في التعامل مع هذه المصادر الطبيعية وعلى رأسها عنصر الماء الذي ابتكرت لأجله عدة طرق وتقنيات لتسهيل عملية الاستفادة منه، وتعميمها في كامل أرجاء المجال القروي،كما أننا نجد تشابها كبيرا بين هذه الطرق والتقنيات حتى وإن اختلفت تسمياتها،ومع بروز تلك الحلول والتقنيات في التعامل مع الطبيعة أمكن للأجيال اللاحقة أن تتداولها وتتفنن في تطويرها بهدف إكسابها المزيد من النجاعة،فبالرغم من المحيط الطبيعي الصعب الذي وجدت فيه هذه القرى ،فقد ساعدت خصائصه ومؤهلاته الطبيعية التي نادرا ما تجتمع في منطقة واحدة ،في أن يكون مادة خام في أيادي السكان يتحكمون فيها ولو بأيسر الأساليب واستغلالها

،فبوفرة المياه الطبيعية والأراضي الصالحة للزراعة وكذا الغطاء النباتي المتنوع استطاع هذا المجتمع الريفي تنظيم نفسه وممارسة كل النشاطات التي تؤمن له بقاءه وحفظ استقراره،لذا اكتسب سكان قرى بني سنوس تقاليد التعامل مع هذه الثروة وحسن التصرف فيها وتوزيعها بالتساوي بين سكان القرى وبأساليب متعددة نجدها تتشابه من قرية إلى أخرى،ولعل أحسن مثال لاستغلال هذه الثروات الطبيعية بالمنطقة هو التحكم في الماء وتوزيعه بنظام تقني معروف لدى الخاص والعام يشترك فيه جميع سكان القرية ولا يعتبر هذا النظام وحيدا ،بل هو نمط من عدة أنماط عرفت بها أرياف وقرى العالم العربي خاصة،حتى وإن اختلفت تسمياتها وقوانينها،ويعتبر الريف السوري خير مثال على تلك الطرق والتقنيات التي اشتهر بها في توزيع المياه[1]، كما اشتهرت بلاد إفريقية (تونس)[2]، بمثل هذه التقنيات المتنوعة وغيرها من البلاد المغربية وبلاد الأندلس ،لذا يمكن القول أن كل تقنية من تقنيات التوزيع في الأرياف تخضع إلى قاعدة معينة سواء كانت عن طريق المواريث وحصة كل فرد من المياه وبالتالي تدوينها في شكل عقود، أو عن طريق تلك الطرق التي تعارف عليها سكان القرية قديما وتستند على الأحكام المحلية الشفوية،فهي نظام معرفي خاص بمجتمع معين وبثقافة معينة[3].

1-المصـادر المائية:

أ- الأودية :

يعتبر واد الخميس الذي يمر بقريتي بني عشير والخميس من بين أهم المصادر المائية التي يعتمد عليها السكان في السقي وجلب المياه من المنابع التي تقع على ضفافه ،ومن بين مظاهر استغلال مياه هذا الوادي هو عمل ما يعرف بالسدود والتي تكون عبارة عن برك ماء يقوم السكان بتجميع مياهها للاستفادة منها في سقي محاصيلهم وبساتينهم التي تقع على ضفاف الوادي ،ويكون ذلك خاصة في الأوقات التي تشح فيها الأمطار،ولا تقتصر أهمية هذا الوادي على السقي فقط بل تتعداه ،حيث يستعمل أيضا في غسيل الملابس و الأفرشة الخاصة بالمنازل حيث تقوم النسوة بجلبها إلى الوادي والقيام بهذه العملية التي كثيرا ما تشترك فيها الكثير من نساء الحي،كما تستعمل مياه الوادي في شرب المواشي والأبقار التي تربى في المنطقة،بالإضافة إلى العديد من الوظائف التي دأب سكان المنطقة على أدائها بالاعتماد على مياه الوادي.

ب- العيـــون :

تزخر منطقة بني سنوس بالعديد من العيون التي سبقت الوجود البشري فالطبيعة الجيولوجية التي تعرف بها المنطقة واحتوائها على جيوب مائية باطنية ساهمت في وجود ينابيع مائية قوية

،استطاع من خلالها السكان تفعيل القطاع الفلاحي وجميع القطاعات الأخرى التي تحتاج إلى عنصر المياه ،والذي سبق وأن ذكرنا بأنه يعتبر من بين الشروط الأساسية في العمران الريفي وأنه حلقة أساسية تقوم عليها حياة التجمعات القروية في الريف والاستعانة بها في مختلف مناحي الحياة،إلا أن المحافظة على عنصر العيون والعناية بها والتصرف في مياهها وحسن استغلالها يتطلب أعمالا بشرية محددة،ويمكن تصنيف العيون الموجودة في القرى إلى صنفين،صنف دائم الجريان وهو ممثل في العيون الدائمة التدفق وصنف آخر يعتمد على المواسم خاصة موسم الشتاء ونجده ممثلا في العيون التي تنقص مياهها وتنقطع بمجرد انقضاء موسم الشتاء .

- العيـون الدائمة :

يمثل عنصر العيون الدائمة بالنسبة لسكان القرى أهمية خاصة،ف من خلالها يقوم السكان بسقي المحاصيل الزراعية وبساتين الزيتون ومختلف الغراسات التي اعتادوا على تزيين حقولهم بها والاعتناء بها وقضاء معظم أوقاتهم فيها،فالعمل في المجال الفلاحي ليس بالأمر الجديد لدى سكان هذه القرى فهو دأب الأجداد الذي توارثه سائر سكان المنطقة أبا عن جد،وقد ساهمت المنابع والعيون بمياهها المتدفقة في زيادة الإنتاج الفلاحي في المنطقة وتنوعه،ونذكر من تلك العيون المنبع المائي أو كما يسميه سكان قرية تافسرة(**العين الكبيرة**)التي تقع بمحاذاة المسجد العتيق(الصورة رقم:1)،والتي يخرج ماؤها من الأرض ويتجمع في بركة،حيث قام السكان قديما بإحاطتها بسور دائري الشكل وإحداث عدة ثقب فيه(الصورة رقم:2) ينفذ من خلالها الماء الذي يتدفق من البركة عبر ساقية ،ووضع عدة ثقوب في السور لم يكن عفويا وإنما للسماح للمياه بالتدفق من البركة خاصة أثناء فصل الشتاء أين يزداد منسوب المياه ويرتفع في البركة، فللحفاظ على السور من التهدم نتيجة المياه ،تم القيام بوضع تلك الثقوب ليتم بعد ذلك تجميعه في صهريج صغير(الصورة رقم:3) أين تحدث بعد ذلك عملية التوزيع.

-العيـــون الموسمية:

يوجد الكثير من العيون الموسمية بمنطقة بني سنوس والتي يتم الاستفادة منها خاصة في فصل الشتاء، بحيث تنبع هذه العيون ويزداد منسوب مياهها ،لكن استعمالاتها لا تكون ذات أهمية كالعيون التي سبق ذكرها،وإن كان استعمالها يحل محل تلك العيون في بعض الفترات التي يراد من خلالها تخفيض الضغط على العيون الدائمة،فيتم استعمالها خاصة في توريد الأغنام والمواشي وكذا ري بعض البساتين الخاصة بأشجار الزيتون التي تقترب من تلك العيون،وقد اخترنا نموذجا من

هذه العيون التي تقع في قرية تافسرة والمعروفة **بعين بني محمود**(الصورة رقم:4) والتي تقع في المنطقة الغابية الواقعة جنوب القرية حيث تم تجميعها في حوض مائي(الصورة رقم:5) ،ثم تم حفر السواقي التي تمتد على مسافة طويلة وفي منحدر لتصل القرية بهذا الحوض المائي الذي يتم الاستفادة منه في عملية السقي،في حين تحمل عيون أخرى تسميات لبعض صلحاء المنطقة ،وتتميز ببعض الخصائص الاستشفائية مثل عين سيدي ورياش التي تقع في قرية الخميس ،ولذلك فهي مستغلة إضافة إلى السقي في معالجة العديد من الأمراض وخاصة الجلدية سيما أنها ارتبطت لدى التصور الشعبي ببركة الأولياء .

3- توزيع الماء وتقسيطه:

يتم توزيع الماء وتقسيطه في القرية بطرق وتقنيات قد تم تدوينها في عقود ووثائق يعتبرها سكان القرية من بين الأمور التي لا يجب أن يطلع عليها غير سكان القرية إذا دعت الحاجة إلى ذلك كحدوث النزاعات ،والخصومات مثلا،ولهذا السبب لم يمكن لنا الحصول على مثل هذه الوثائق والاطلاع عليها،وتجدر الإشارة إلى أن تقسيم الماء لا يكون إلا في العيون الدائمة التدفق، وقد اخترنا مثالين لهذا التقسيم النموذج الأول قع في قرية تافسرة والمعروف بالعين الكبيرة التي سبق وأن أشرنا إلى مدى أهميتها بالنسبة لسكان القرية،فعملية توزيع الماء من خلالها تتم بعد أن يجتمع الماء في الصهريج الذي تتفرع عنه عدة سواقي يتم من خلالها توزيع المياه بأقساط تم التعارف عليها وتوثيقها على شكل عقود بين سكان القرية منذ القدم حيث تم تقسيمها بين العائلات بمقادير متساوية،ولعل حاجة السكان إلى الري والسقي خاصة في موسم الصيف أو في سنوات الجفاف هي التي دفعتهم إلى ابتكار هذا النظام وتزويده بالسواقي(الصورة رقم:6) التي نجدها تسير في اتجاهات وتفرعات مختلفة ،والتي ينساب من خلالها الماء الذي ينتهي إلى عروق الأشجار وجذورها وباقي المحاصيل التي تروى به ،وقد أوكلت عملية القسمة في القديم إل طلبة القرآن، وذلك بإرساء قاعدة سبعة أدوار ري في أربع وعشرين ساعة (دورة يوم كاملة) وهي كالآتي:

1- من الفجر إلى الوقت المسمى سبعة أقدام، وهي فترة صباحية يبلغ خلاله ظل الرجل سبعة أقدام طولا.

2- من سبعة أقدام إلى صلاة الظهر.

3- من الظهر إلى صلاة العصر .

4- من العصر إلى صلاة المغرب(غروب الشمس).

5- من المغرب إلى صلاة العشاء.

6- من العشاء إلى وقت النوم، على الساعة 22:30 ،أي مدة ساعة ونصف (نفس المدة التي يستغرقها الدور السابق).

7- من وقت النوم إلى صلاة الفجر .

لا يمنع هذا التقسيم الفلاحين من مراقبة بعضهم البعض[4]، والاطلاع على صيرورة العمل من وقت لآخر، وتعتبر أدوار الماء هذه في قرية تافسرة قانونا وعرفا اجتماعيا سنه الأجداد والآباء فلا بد من احترامه وتلقينه للأبناء،ويتشابه هذا النظام في توزيع المياه والنظام المتبع في ريف دمشق حيث تقسم الأدوار على كامل ساعات اليوم ،فقط نجد الاختلاف في المصطلحات المستعملة في تسمية تلك الأدوار والتي تخضع إلى تلك المنطقة وثقافتها[5].

لدينا نموذجا آخرا لهذا النوع من العيون اعتمد لتوزيع الماء وتقسيمه في قرية الخميس والذي يعرف **(بعين سيدي ورياش)** (الصورة رقم:7)،حيث تقع هذه العين عند الجبل ،وقد تبين لنا من خلال المعاينة الميدانية التي تتبعنا فيها السواقي التي جلبت عبرها مياه هذه العين أن سكان القرية قد قاموا بعمل جبار لجلب تلك المياه ،فصعوبة الطريق والانحدارات الشديدة عبر الصخور الصلبة صعب من مهمة حفر السواقي التي يمر معظمها بأرض صخرية (الصورة رقم:8)،ويستفيد سكان أولاد موسى بقرية الخميس من هذه المياه التي قام السكان بعد جلبها بالقيام بتجميعها في صهريج (الصورة رقم:9) يقع فوق هضبة تشرف على سكان أولاد موسى مما سهل عملية تقسيم المياه وتدفقه عبر السواقي، ليستقر بعد ذلك في الحقول المنتشرة في أطراف القرية،وإذا كان سكان قرية تافسرة قد ورثوا عن أجدادهم تقسيم مياه العين الكبيرة باتخاذ ظل الرجل كمقياس لتوزيع المياه، فإن سكان الخميس اعتمدوا على مقياس آخر يتمثل في قبضة اليد التي تساوي حوالي 10سم ،ولكل عائلة عدد معين من هذه القبضات فهناك من له 10 قبضات وهناك من له أكثر من ذلك ،وهذه المقادير يعرفها العام والخاص من السكان فمجرد السؤال عن مقدار عائلة ما من المياه يجيبك سكان القرية وبدقة ،وهذه القبضات يتم حسابها في الصهريج عن طريق قصبة حيث يتم إدخالها في الصهريج ثم يقوم من جاء دوره بحساب مستوى الماء فإذا كان مثلا عدد قبضاته في القصبة 10 قبضات ،وجاء دوره فما عليه إلا إيقاف الماء عمن سبق دوره وتحويل الماء إلى حقله بفتح فوهة الساقية وسد الأخرى التابعة لفرد آخر من سكان القرية ،أما عن كيفية معرفة دور كل واحد من عملية السقي فهناك ثلاثة أدوار تعارف عليها السكان منذ القدم بالساعات وحسب العائلات ونظام الميراث بين أفرادها الذي تم تدوينه في العقود التي بينت هذه المقادير والنسب التي لا يفهمها غير سكان القرية ، فهناك دور يدوم (11 ساعة)والثاني يدوم (12ساعة) وأما الدور الأخير فيدوم

(18ساعة) وتتم عملية تقسيم الماء في قرية الخميس فقط في مواسم الجفاف أو فصل الربيع والصيف أين تكثر المزروعات والخضر التي تحتاج إلى المياه ، أما في فصل الشتاء فيتم تصريف هذه المياه في البساتين الخاصة بالزيتون.

خاتمة:

تجدر الإشارة في الأخير إلى أنه رغم توفر مختلف مصادر المياه التي من خلالها تم تسيير وتقنين نظام الري هذا والذي انتظم من خلاله العمران الريفي والحياة الفلاحية لسكان قرى بني سنوس لأزمنة تاريخية طويلة ،فإنه في الفترات المتأخرة وبمرور الزمن تم بيع العديد من القطع الأرضية الصالحة للفلاحة وتجزئتها بين الورثة حتى أصبح البعض منهم من لا يملك إلا بضع دقائق من الماء،والتي لا تفي بعملية الري،فمثلا أصبح أحد الأدوار يسمى بالقُرصَة أي (قرص الخبز) والذي يكون وقته ما بين ميلان الشمس إلى الغروب ،أما عن الدور الواقع بين الفجر وطلوع الشمس والذي يحيط به الكثير من الاحترام الديني فإن توزيع الماء أثناء وقته لا يفلت من التعسف،ثم إن شراء بعض الملكيات أو نقلها وشراء الحق في الماء أو اغتصابه ،خلال فترات معينة من تاريخ المنطقة يضع الكثير من القطع الأرضية الشاسعة تحت طائلة الجفاف والقحل بسبب استفادتها من أدوار لا تفيها حقها من المياه،في حين نجد أن هناك قطع أرضية أخرى لا تزيد مساحتها عن بضعة أمتار تستفيد من أدوار ماء تقدر ب8إلى12 ساعة هذا بغض النظر عن مسألة أخرى وهي أن العرف يجيز بيع الماء[6].

الهوامش:

1 -مراد عرعار،**الجغرافية التاريخية لجهة التل الأعلى التونسي خلال العصر الوسيط المبكر(ق1-منتصف ق5هـ/ق7-11م)**،أطروحة دكتوراه ،قسم التاريخ،جامعة تونس،2005.

[2]- محمد سويسي،**أنماط العمران البشري بإفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي**،مركز النشر الجامعي،تونس،2001،ص59،58.

[3] - زهية جويروا،**التشريع الإسلامي في ملتقى الثقافات أحكام المياه في الأندلس مثالا**،حوليات الجامعة التونسية،العدد،51،ج2،كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة،2006،ص355-364.

[4]- ألفرد بل ،**بني سنوس ومساجدها في بداية القرن 20 (دراسة تاريخية أثرية)**،تر:محمد حمداوي،دار الغرب للنشر والتوزيع.ص104.

[5]- عبد المجيد شعبان،**ريف دمشق من خلال سجلات المحاكم الشرعية،1700-1725**،أطروحة دكتوراه،قسم التاريخ،جامعة تونس،1998،1997،ص92.

[6] – ألفرد بل ،**مرجع سابق**،ص105

ملحق الصور:

ثقب يتفرع عنها الماء للتوزيع بالعين الكبيرة بقرية تافسرة

منبع عين بني محمود

الحوض المخصص لجمع الماء

ساقية

السواقي لجلب المياه

صهريج